

هل يكفي التراث الشرقي

لنضج الحياة العقلية عند الشرقيين؟

للأستاذ عبد الرحمن الراجحي بك



التراث للشرق في العلوم والآداب والفنون هو ولا شك تراث مجيد ، ولكنه مع ذلك لا يكفي لنضج الحياة العقلية الحديثة عند الشرقيين ؛ بل يجب لكي يصل هذا النضج إلى مداه من التقدم أن يجمع إلى التراث للشرق خير ما أنتجته ومنتججه للتراث والمقل للبشرى في الغرب. ولا فضاضة علينا في ذلك ، فإن الأمم الأوروبية نفسها وهي التي تم نضج الحياة العقلية فيها ، لا تفتأ كل منها تقتبس عن أية أمة أخرى في الغرب أو الشرق ما يظهر فيها من مستحدثات التجارب والاكتشافات والمذاهب العلمية . ولذلك قالوا : إن الدم لا وطن له ؛ وإن كان المالم له وطنه كما قال « باستور »

إن التراث للشرق في ذاته لم يقف عند مستوى واحد ، ولم يقتصر على ظابع واحد ، بل كان ينمو ويتطور على مدى

ولم يتفق لي أشرح شيئاً إلى أن دخلت مصر المحروسة في اليوم السابع من ربيع الأول ثم شرعت في ربيع الآخر وقد يسر الله التمام وحسن الختام ... »

ومن الكتوز التي ذكرها في المقدمة : « الكامل للبرد » (١٧) وشرحه لابن السيد البطليوسي ، ولأبي الوليد القشبي ، ولغيرها (١٨) ... »

فأين هذه الشروح ؟! أين هذه الشروح ؟! هل عثر عليها أحد ؟! هل اطلع على أحدها أحد ... ؟! * * *

(١٧) البرد بفتح الراء للشدة كما ضبط ابن خلكان ، تراجع الرسالة ١٩٩ من ٧١٢ والرسالة ٢٠١ من ٧٩٧ والرسالة ٢٠٠ من ٩٠٨ وخزاة الحوى من ٢٥٦ والأساس ٢ من ١٩٣

(١٨) ومن تلك الكتوز : كتاب النبات في مجلدات كبار سنة لأبي جنيفة الدينوري ، شتهى الطلب من أثمار الرب فيه أكثر من ألف قصيدة ، تأليف أبي علي الفارسي كالتذكرة التصرية وللمائل البنادية وللمائل العسكرية وللمائل البصرية وللمائل للشورة ، كتاب الشر والشمراء للباحظ ، أثمار لصوص الرب ... ، أمالي الزجاجي الكبرى ، أمالي العلوي ، أغلاط الكامل للبرد ، الخاتمة البصرية

المصور . وفي خلال هذا التطور قد اقتبس عن التراث للغرب القديم ، وكان ذلك من عناصر نموه وارتقائه

فآداب والعلوم والحياة العقلية في عصر الجاهلية تختلف طبعاً عما صارت إليه في صدر الإسلام على عهد الخلفاء الراشدين ، ثم في عصر الأمويين والعباسيين ؛ وإنتاج للتراث والمقول في هاتيك للمصور قد نما وتطور تبعاً لسنة للتقدم للإنساني ، بحيث أن التراث للشرق يحتوي على أدوار متصابقة ، لكل دور طابعه وخصائصه . ولست أريد للتوسع في بيان ذلك لكي لا يخرج عن جوهر الموضوع ، وأكتفي بالإشارة إلى أن الحياة العقلية والأدبية في عصر العباسيين قد نمت وازدهرت واتسعت آفاقها عما كانت عليه في عهد الأمويين ، وكان من مظاهر هذا الازدهار ظهور العلوم الدخيلة أي القنبسة عما وضعه رجال العلم والفلسفة والأدب في الحضارات القديمة : كالمصريين والفرس واليونانيين والرومان . فإذا قلنا : إن علوم المصريين القدماء والفرس تمتد من التراث للشرق ، فإن علوم الإغريق والرومان وآدابهم هي من التراث للغرب القديم

نقل إذن علماء العصر للعباسي علوم اليونانيين إلى اللغة العربية ، فترجموا الفلسفة والآداب والمنطق عن أفلاطون وأرسطو ، والطب عن أبقراط وجالينوس ، والرياضيات والفلك عن أقليدس وأرخميدس ، وغير ذلك كثير ، فكان لهذا الاقتباس أثره في نضج العلوم والأفكار واتساع محيط الحياة العقلية عند الشرقيين . ولا شك أن العصر العباسي في التراث للشرق يعد العصر الذهبي من الناحية العلمية والأدبية والفلسفية . وقد ظهر طابع هذا العصر في الشعر والآداب والعلوم والفلسفة ، وفي تعدد العلوم وظهور علوم جديدة ، كالطب والكيمياء والميدلة والجغرافيا والموسيقى والفنون الجميلة . فهذا الطابع يدلنا على أن ازدهار الحياة العقلية في التراث للشرق في ذاته كان مقترناً بالاقتباس عن الحضارات الأخرى انتهى هذا العصر الذهبي بققوط العروة العباسية ، أو بعبارة أخرى بققوط بغداد في يد التتار سنة ٦٥٦ للهجرة (١٢٥٨ م) وجاء للعصر المملوكي ، ثم العصر العثماني ، وفيهما أصاب التراث للشرق الركود ثم الجمود ، وتبع ذلك وقوف حركة التقدم . نعم إن قرائح العلماء والأدباء في الشرق قد استمرت في الإنتاج

إلى إجداء المهد لتمجيد ، ولكن مما لا شك فيه أنه منذ الفتح العثماني لمر سنة ١٥١٧ قد وقفت حركة التقدم تماماً ، فكسدت العلوم ، وانحط الأدب ، ووجدت القرائح ، وتراجعت العقول ، واتقضت نحو ثلاثة قرون والشرق في تأخر من الناحية العلمية والحياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ بينما الغرب قد أخذ بأسباب الحياة والنهوض فسبق للشرق عدة قرون في النهج العقلي . فهدى أنه عندما ابتدأ للشرق يستفيق من سباته العميق في نهاية القرن الثامن عشر كان لا بد أن يقتبس من الغرب ما سبقه إليه في خلال القرون المتعاقبة ؛ لأن العلوم والآداب والاكتشافات والاختراعات قد ضاعت تراث الغرب بحيث لا يستطيع للشرق أن يأخذ قسطه من الحياة العقلية إلا إذا اقتبس عنه خير ما أنتجته قرائح علمائه وفلاسفته وأدبائه في خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن . فمثل للشرق في ذلك كمثل للتليذ الذي يقمعه المرض أو للسكسل من متابعة الدرس وللتحصيل زمنياً ما ، فإذا عاد إلى الدرس كان مضطراً إلى أن يأخذ من أساتذته أو عن مؤلفاتهم ومذكراتهم ما قاته في مدة المرض أو السكسل لكي يصل إلى مستوى أقرانه في المدرسة

ولم يتردد الغرب حين بدأ عهده بالبحث والنهوض في أن يقتبس من التراث للشرق حضارته وعلومه ؛ فقد نقل علماءه فلفسة ابن رشد ودرسوها واتبسوا منها ، وكانت ينبوعاً لليقظة العلمية في الغرب

واتبسوا أيضاً في عهد الحروب الصليبية العلوم والحضارة الشرقية وحملوها إلى بلادهم وأقدوا منها ، وكانت من العوامل الجوهرية في نهضة أوربا

فن الواجب إذن على الأمم الشرقية إلى جانب إحياء التراث للشرق القديم أن يقتبس من الغرب تراثه الجديد ، وتأخذ عنه بحاسنه ومزاياه . ولو أن حركة التقدم قد تابت سيرها في الشرق ولم يقفها ذلك للتأخر الذي أسابه خلال قرون عديدة لراد من غير شك تراثه في العلوم والآداب ، ولما سبقه الغرب في هذا للضمار . أما وقد سد عهده بأزدها الحياة العقلية فقلبه إذا أراد بت هذه الحياة أن يقتبس من الغرب علومه الحديثة . وهذا على وجه التحقيق ما أنتجت إليه حركة النهضة العلمية والعقلية في مصر منذ بداية القرن التاسع عشر ، عند ما ولي أمرها

محمد على الكبير . فهو إذ أراد أن يمت الحياة العلمية والعقلية في مصر لم يقتصر على إحياء التراث للشرق القديم بل نقل إليها إلى جانب ذلك علوم الغرب وآدابه . وأوفد لذلك البعثات العلمية إلى أوربا فتلقى أعضاؤها للعلوم والفنون والآداب في جامعات فرنسا وغيرها وطادوا إلى مصر وقد اكتملت ثقافتهم ففعلوا إلى المنة للمرية كتب الطب والطبيعات والرياضيات والفنون الحربية والآداب والحقوق والعلوم الاقتصادية والاجتماعية . فهؤلاء العلماء الذين استوفوا قسطهم من التراث الغربي ثم الدين على يدهم بمت التراث للشرق القديم في ثوب تشيب ، فمادت إليه الحياة . ولو أنهم اقتصروا على هذا التراث وحده لما كان في استطاعتهم بعثه واستظهار مفاخره ومزاياه . فقل ضوء للعلوم الأوربية والثقافة الأوربية قد تكشفت لهم حقائق التراث للشرق وفهموها حق الفهم ، وربطوا بينها وبين عوامل التقدم الحديث بحيث تابعوا هذه العوامل فنهضوا بهذا التراث وجعلوه ملائماً لمقتضيات العصر الحاضر

هناك وجهات نظر ثلاث لا تزال للنهضة العلمية والعقلية في الشرق مترددة حائرة بينها : إحداهما ترى إلى الاقتصار على التراث للشرق القديم وإحيائه ، وقصر الحياة العقلية على حدوده ومقتضياته ؛ وهذه الوجهة لا تكني فيما اعتقد لاستكمال أسباب النهضة والحياة في العصر الحديث . والثانية اطراح التراث للشرق جانباً وقطع سلطنا بالماضي واقتباس الحضارة الأوربية والعقلية الأوربية كما هي بما لها وما عليها ، بمزاياها وعيوبها . وهذه أيضاً وجهة نظر خاطئة تنهى بنا إلى اقتباس العيوب دون المزايا ، وتؤدي إلى نوع من التبعية العقلية والثقافية لأوربا تتطور مع الزمن إلى تبعية سياسية وقومية . والوجهة الثالثة هي إحياء التراث للشرق مع اقتباس خير ما أنتجه وينتجه التراث الغربي من الناحية العلمية والأدبية ؛ وهي في اعتقادي الطريقة الوسط التي تكفل لنا نهضة صحيحة في الحياة العقلية والفكرية

إن أجد في تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ما يؤيد وجهة نظري ؛ فهو الإمام الديني العظيم ، ومع ذلك قد اقتبس في علمه وتفكيره عن العلوم والفلسفة الأوربية ، وطالع الكثير من كتب العلماء والمستشرقين والفلاسفة الأوربيين . وكان يتابع دائماً حركة التقدم العلمي في أوربا ويخالط العلماء الغربيين ويحادثهم ويأخذ